لمعان الضوء فى دياجير الظلام

دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي

١٠٦٦ هـ - ١٠٧١ هـ

١٦٥٦ م - ١٦٦١ م

تأليف

د . يوسف بن على بن رابع الثقفى

الأستاذ المشارك فى التاريخ الحديث بكلية الشريعة

بجامعة أم القرى

، مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهى عصر القوة والمجد والسؤدد فى الدولة العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م ، وبدأ بعده عصر الضعف والتفكك ، انتهي العصر الذى وصلت فيه الفتوحات العثمانية الى أواسط أوربا ليأتى بعده عصر التفكك ومنافسات داخلية ساهمت في ضعف الدولة وتدهور الأوضاع فيها حتى أصبحت مستهدفة لأعدائها في الداخل والخارج وأصبحت في موقف الدفاع بعد أن كانت في موقف الهجوم .

أن الفترة الزمنية التي سبقت تولى حكم كوبريلي منصب الصدارة العظمى (*) في حكومة الدولة العثمانية شهدت مآسي كثيرة مؤثرة . فالادارة تفشت فيها مظاهر الفساد وعدم الضبط ، والجيش الذى كان يفتح في أوربا تحت راية الاسلام قادته يتخبطون في المؤامرات الداخلية وتنصيب سلطان وعزل آخر ، والعامل الديني الذى كان المحرك الأول للفتوحات العثمانية في أوربا لم يعد كما كان حيث أصبح رجال الدولة من سادة وجنود مهتمون بجمع المال وملذات الدنيا . (١)

لقد انتشرت الفوضي في الأقاليم ، وسيطر بعض الثوار على مناطق كثيرة ، وازداد نفوذ القواد الانكشاريين ، وأكثر الموظفون من أخذ الرشوة ، وأصبح النفوذ

(*) الصدارة العظمى هي الديوان العالي أو ديوان الهمايوني في اسطانبول والذى يتكون من الوزراء والمفتى ؛ والسلطان لا يجلس معهم في الديوان ولكنه يجلس في مكان يطل منه عليهم ، فيرى ويسمع ما يدور فيه ، وعلى أعضاءه أن يرفعوا أصواتهم ويفصحوا في عباراتهم لكي لا يخفى على السلطان شيء ولكي يعرف الأصلح والأنفع منهم ، ورئيس هذا الديوان يسمى ب " الصدر الأعظم " .

" اتحاف الملوك الألباب " مؤلف مجهول ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ص ٣٦٦

(١) اتحاف الملوك الألباب ، لا يعرف مؤلفه ، ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ، ص ١٧٩ .

السلطانى فى أيدى نساء القصر ، وزادت أطماع الدول الأجنبية في أملاك الدولة . (١)

يقول المؤرخ العثماني اسماعيل سرهنك :

" قد كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت (يقصد النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادى) في أشد المضايقة ، وماليتها على شفا الافلاس ، وجنديتها البرية التي دبت بينها عوامل التحزب والانحطاط، وأباد البنادقة أساطيلها في عدة وقائع واستولوا على عشر جزر مهمة ببحر الأرخبيل ، كل ذلك والدولة في حالة سبات وخمول ، لا تتمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ، ولا تقدر على سد شق الا واتسعت منها شقوق حتى قيض الله لها رجلا شهما حازما ، ووزيرا عالي الهمة نادرا ألا وهو كوبريلي محمد باشا ، وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الأيام . ولما قبض علي مسند الصدارة شمر عن ساعد الجد لسد الخلل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد في الحقيقة الاصلاح ويبتغي بكل جوارحه النجاح ، وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأخذ في استئصال عروق الفساد ، والتفت الى توطيد دعائم السلطنة ، وتحسين نظام الادارة، وتقوية الجنود البرية والبحرية ، ، وترتيبها وتدريبها ، وغير ذلك من الأعمال المفيدة والآراء السديدة ، حتي اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة حميدة » . (٢)

---

(١) Kinross , Lord , The Ottoman Centuries , The Rise and Fall Of the Turkish Empire , P. 329

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ / ١٦٨

انه بلا شك أن هذه المقولة تعطينا الصورة واضحة بأن الفترة الذهبية للدولة العثمانية انتهت - كما أشرنا - بوفاة السلطان سليمان القانوني ، وأن الدولة مرت بعد ذلك فى دياجير ظلام شديد الظلمة ، ثم لاح للأعيان بريق من الأمل وضوء لامع استمر فترة زمنية قصيرة بالنسبة لعمر الدولة العثمانية ؛ وكان هذا اللمعان على الرغم من قصر مدته له أهمية عظيمة لا سيما وأنه أدى الى تغيرات حاسمة وبناءة فى كيان الدولة العثمانية في زمن قياسي ، وهذا ما سنناقشه في هذه الدراسة المتواضعة علنا نصل الى معرفة الدور الحاسم الذى لعبه هذا الوزير - محمد كوبريلي - في الحفاظ على سمعة الدولة العثمانية وتماسكها بعد أن كانت على شفا حفرة الانهيار ، وعلنا نصل أيضا الي توكيد ما ذهبنا اليه في عنونة هذه الدراسة بـ " لمعان الضوء في دياجير الظلام " خاصة وأن ما حققه هذا الوزير من أعمال عظيمة في زمن قياسي جعلني لا أتردد في تسمية فترة حكمه بالعنوان المشار اليه.

ان مما زاد الأمر سوءا في الدولة العثمانية قبل تولي محمد كوبريلي منصب الصدارة هو قيام السلاطين العثمانيين بقتل اخوانهم ومنافسيهم على العرش ، وازدياد القادة العسكريين ، والقضاء على محاولات الاصلاح التي حاول أن يقوم بها بعض السلاطين . ففي عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م قتل السلطان وزيره الصدر الأعظم [١] ، وشهد عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م اعدام السلطان ابراهيم [٢] وتولية ابنه الصغير محمد الرابع عشر الخلافة العثمانية ، وخلال الثمان سنوات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٣٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩ ، محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

الأولى لحكم الصبي(*)عانت الدولة من تمرد وعصيان الانكشاريين والسباهيين . كل هذه الأمور ساعدت على وقوع الدولة تحت التهديد الخارجي ، لا سيما وأن القيادة البحرية العثمانية لم تكن بالمستوى الذى كانت فيه في الماضي ، وهذا ما دفع البنادقة الي التحكم في شواطيء البحر المتوسط كما أرادت . (١)

وفي حقيقة الأمر أن البندقية استغلت تدهور الأوضاع في الدولة العثمانية فحاصرت المضايق وساحل بحر ايجة وموانيء المورة ، وعندما حاولت الدولة العثمانية مقاومتهم انهزم الاسطول العثماني وأسر البنادقة الفا من رجال الجيش العثماني وخسروا ست سفن مسجلين بذلك هزيمة نكراء للعثمانيين . (٢)

لم يتوقف البنادقة عند هذا الحد بل قاموا بتعزيز قواتهم في جزيرة كريت واستولوا على تيندوس (Tenedos) وليمنوس(Lemmos) (٣) من أهم المدن المطلة على المضائق مما أثر على وصول الامدادات الى اسطانبول ، وأساء أيضا الي مشاعر المواطنين العثمانيين،خاصة وأن خطوط الملاحة الموصلة الي مصر

(*) أدلى أحد الذين شاركوا في الاطاحة بالسلطان ابراهيم بتصريح قال فيه : " انه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث أن يشغل الصدارة العظمى رجيل خصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها " .

" عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢١٠ " .

(١) Kinross , Lord , The Ottoman Centuries ; P . 231

على حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ .

(٢) Ibid . P . 231 . , Shaw , Stanford , History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey , P . 207

(٣) Creasy . Edward , S . History Of the OttomanTurks , P . 276 .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣٠ .

وكريت أصبحت مقطوعة وأصبح مضيق الدردنيل مرة ثانية تحت رحمة البنادقة ومغلق أمام البحرية العثمانية . (١)

تحت هذه الأزمات ، وتحت هذه الظروف التي بدأت الأسعار فيها بالارتفاع مع قلة في الطعام ، بزغ فجر جديد عندما بادرت طرخانة (Turkhane) (*) والدة السلطان الصغير المعروفة باسم " السلطانة الوالدة " بدعوة أهم رجل فى القصر العثمانى لتولى منصب الصدارة العظمى.، ولمباشرة أعماله ، وانقاذ ما يمكن انقاذه مما لحق بالدولة من مآسي ومشاكل داخلية وخارجية . ومما روى عنها فى هذا الشأن، قبل تولى محمد كوبريلي هذا المنصب ، أنها راقبت ذات مرة الديوان الهمايونى تحت رئاسة الصدر الأعظم جوردج (GourdJ) البالغ من العمر المائة ، فأدركت أنه مجرد ألعوبة في أيدي الوزراء وبعيدا عن الكفاءة الادارية ، مما جعلها تفقد أعصابها وتصيح قائلة : " ياأبتي إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو أسود ، أن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، أنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السديدة.(٢)

---

(١) جلال يحيى ، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، ص ٤٣٨ .

(*) سيدة روسية الأصل نافست جدة السلطان لأبيه منافسة شديدة على السلطة ونجحت في النهاية

" عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ١ ، ص ٢٣٦ .

هذا الرجل هو محمد كوبريلي نسبة إلى القرية التي تربى فيها واسمها "كوبريلي"(*) ، وقيل أنه ولد في قرية البانية اسمها " رودنك ": قرب " برات " وذلك عام ٩٧٨ هـ من أسرة غير معروفة ، ثم ذهب إلى قرية " كوبريلي " وسط الأناضول (٢) ، وأخذ فيها تيمارا (**) وتزوج بنت السنجق (***) وهذا هو سبب تسميته نسبة الى القرية التى نشأ بها .

بدأ محمد كوبريلي حياته في القصر العثماني كطباخ ثم أصبح كبير الطباخين ثم رئيسا للخدم ، فمربي للصقور حتى وصل بمساعدة نساء القصر الى وظيفة سنجق في دمشق ثم طرابلس وأخيرا في القدس . (١)

وعندما بلغ السبعين من عمره أو الثمانين كما ذكرت بعض المصادر وبنصيحة من السلطانة الوالدة ، تم تعيينه في منصب الصدارة العظمى التي تعادل رئيس الوزراء اليوم . (٢)

(*) مدينة صغيرة في آسيا الصغري وقد نزح اليها جده من البانيا ، وعرفت عائلته بهذا الاسم نسبة الي هذه القرية :

" Eversly . L . The Turkish Empire " , P . 179

(**) التيمار : هو الاقطاع الأصغر وهو عبارة عن الأرض التي يمنحها السلطان بهدف استثمارها على أن يقدم صاحب التيمار خدمة للدولة مثل ضرائب أوفرسان أو بحارة للأسطول .

أحمد شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة ، جـ ٥ ، ص ٦٧٥ .

(***) سنجق بمعنى راية ، ويطلق هذا الاسم على حاكم الولاية أو المدينة ، وللسنجق مميزات خاصة منها أن تعزف الموسيقى له أثناء دخوله وخروجه لمقر عمله ،

عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر ، ص ١٧ .

(١) Eversly , L . The Turkish Empire , P . 180 .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٦ .

وعلى الرغم من وجـود بعض المخلصين للدولة والمؤيدين الذين سـعـوا من أجل تعـيين محمـد كوبريلي في هذا المنصب ، ألا أن هناك فئات في القصر العثمـاني وخاصـة من ذوى المصالح الشـخصيـة لم يرق لهم هذا التـعـيين وحاولوا الأشـاعـة بأن رجل في السبعين من العمر لا يعرف القراءة والكتابة من الصعوبة بمكان أن يمسك زمام الأمور ويدير شئون الدولة بطريقة صحيحة . (١)

ويبـدو أن دافع الغـيـرة هو الذى جعلهم يقـولون بذلك لا سـيـمـا وهم يعلمـون أن محمد كوبريلي مشهود له بالأمانة والسـمعة الحسنة خلال سنوات عمله في القصر والمناطق التى حكمها .

ومما يدل على تميزه عن منافسيه وأن مـا قام به أعداءه انما كان ذلك بدافع الغـيرة فـقط ، انه عـندمـا طلب منه أن يشـغل هذا المنـصـب ، رفـض قـبـوله الا بشـروط معينة ، خاصة وقد أدرك أن اصلاح الأمور في الدولة سوف لا تكون في وضعها الصـحـيـح مـا لـم تـطـلق لـه حـرية الـعـمـل دون تدخل الـسـلطان. وكـان شروطه الـتـى

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition, P. 78.

أوردتها معظم المصادر التاريخية على النحو التالي : (١)

- أن لا يقبل السلطان أو ينفذ أى طلب أو مكاتبات ما لم تكن مصادق عليها من قبله .

- لا يحق لأي موظف أو وزير أن يتصرف في أمرها دون علمه .

- يختص بالنظر في التعيين في الوظائف والغاءها صغرت الوظيفة أم كبرت .

- لا يجوز للسلطان أن يسمع للوشاية ضده من أعداءه وتكون ثقة السلطان فيه مطلقة .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط تحد إلى حد كبير من صلاحيات السلطان وأمه الوصية عليه ، الا أن الوضع المتدهور في الدولة - كما يبدو - وعدم وجود الرجل المناسب لهذا المكان جعل السلطانة طرخانه تنقاد لشروطه وتوافق عليها وتقسم أمام الملأ نيابة عن ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاما (٢) آنذاك - حسب

---

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولة علية عثمانية ، ص ٩٣ .

عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٧ .

Kinross , Lord , The Ottoman Centuries , P . 180

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٦ ، ص ٣٧١ / ٣٧٢ .

(٢) Eversly , L . The Turkish Empir , P . 180

طلبه - أن شروطه ستكون في موضع الاعتبار والتنفيذ . (*)

ثم أعقب ذلك مصادقة مفتي الدولة على هذه الشروط لتأخذ بذلك صفتها الشرعية ، وتم استقبال الوزير في موكب رسمي حتي مقر السلطان الصغير الذى أعلن بدوره موافقته على الشروط وتأييده للقسم الذى أدته أمه . (١)

أطلق على الوزير محمد كوبريلي مسمى الصدر الأعظم ، وبدأ بعد تعيينه يمارس عمله وأصبحت شئون الدولة واصلاحها منذ تعيينه تحت تصرفه بدون تدخل من السلطان وأمه .

وأشار المؤرخون الى أن تجاربه الطويلة في خدمة القيادات الرسمية والصدور العظام ، وتنقله في وظائف مختلفة قبل توليه هذا المنصب ، كل ذلك ساعد على لنجاح ادارته ، وجعلته يعرف عن يقين أمراض الدولة التي تعاني منها وكيفية التعامل معها . أيضا ساعدته تجاربه الطويلة على معرفة الرجال وما يقوم به شلة القصر من أعمال فأصبح رجل التجربة والحكمة ، يتصرف بعقل متيقظ ، رحيم

(*) يبدو أنها على يقين من اخلاص وزيرها الجديد ورغبته في خدمة الدولة بعيدا عن تحقيق المصالح الشخصية مقارنة بغيره من الصدور العظام والا لما سارعت بإعلان موافقتها أمام الرعية حتى لا ينفلت زمام الأمر ويرفض العمل .

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ .

Kinross Lord , The Ottoman Centuries , P . 332 .

وقت الرحمة متنبه لمراقبة المستهترين ، وضاربا بيد من حديد على كل من يريد الاخلال بالأمن ، وملتزما بالهدوء وضبط النفس ومعاملة الرعية بالعدالة دون تمييز في المناصب . (١)

بهذه الحيوية وهذه المواصفات وهذه القوة التي تم بها تعيينه في الصدارة العظمى بدأ الوزير محمد كوبريلي يمارس صلاحياته مبتدأ بتصحيح بعض الأوضاع في الداخل ثم الاهتمام بالشئون الخارجية .

وابتدأ اصلاحاته الداخلية بمراقبة المتهاونين في أداء أعمالهم واستبدال من يثبت ادانته دون النظر الى مكانته الوظيفية ، وليس أدل على تنفيذ قراراته أن من بين من وجدهم متهاونين وتم استبدالهم : قائد الأسطول العام / زعيم الجيش الانكشارى / وشيخ الاسلام . (٢)

وفي داخل القصر لاحظ أن بعض العاملين يسيئون استخدام وظائفهم فأصلح من شأنهم واستبدل بعضهم بغيرهم ، وكان من أولئك رئيس الخصيان الأسود مستشار والدة السلطان حيث نفاه إلى مصر عندما لاحظ اخلاله بمسؤولياته . (٣)

وعندما لاحظ محمد كوبريلي انتشار البدع والخرافات في الأوساط الشعبية ومدى تأثيرها في خلق أزمات داخلية متعددة،رأى أنه من الأفضل العودة الى أيام

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition. P. 77 .
Kinross , L . The Ottoman Centuries , P . 332 .

(٢) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي ، دولة علية عثمانية ، ص ٩٢ .

(٣) Norman Itzkowitz , Ottoman Empire and Islamic Tradition, P . 77 .
Eversly , L . Turkish Empire , P . 180 .
عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ / ٦٩

المجد والسؤدد ، الى أيام السلطان سليمان القانوني عندما كانت الشريعة الاسلامية هي الفيصل في المعاملات ، وكانت الدولة ملتزمة بتطبيقها في كل شئون الحياة . واتخذ لتنفيذ ذلك قرار يقضي بالاعدام أو الاعفاء من الوظيفة لكل من يقف ضد هذه الدعوة الاصلاحية . (١)

وشملت اهتمامات محمد كوبريلي الداخلية ميزانية الدولة (٢) ، فأمر على الفور بالغاء المصروفات الاضافية وأبقى على الضروريات فقط ، وأمر بمصادرة الأملاك الخاصة (*) وأن تعود فوائدها الى خزينة الدولة .

أما اهتمامات الوزير محمد كوبريلي بشئون الدولة الخارجية والثورات الداخلية فتتمثل في الصراع العثماني / البندقي حول مضيق الدردنيل ، واخضاع التمرد في ترانسلفانيا ، والقضاء على ثورة حسن أباظة .

فبالنسبة للصراع العثماني / البندقي ، فقد أدرك محمد كوبريلي أن خطر البنادقة عليهم زاد عن حده ، وأن الوضع التجارى في دولته سيبقى تحت رحمة الأعداء طالما بقيت المضائق مهددة . ولذلك رأى أن فك الحصار قد لا يحدث ما لم يعيد للاسطول العثماني نشاطه ، وعلى الفور اسند مهمة بناء الاسطول الى القائد طوبال مجمد باشا ، والذى تمكن من تجهيز اسطول عظيم مجهز بالأدوات اللازمة .

---

(١) محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) لم تحدد المصادر هوية هذه الأملاك الخاصة ، وأننى أشك فى حدوث مثل هذه الحالة لا سيما اذا اخذنا في الاعتبار رغبة الوزير فى العودة الى تطبيق القوانين الاسلامية وعدم معارضة الاسلام للملكية الخاصة ؛ هذا من جانب ، ومن جانب آخر هذه المعلومة لم ترد في المصادر الاسلامية وانما أوردوها المؤرخون الغربيون مما يجعلنا نشك في صحة مثل هذه الرواية .

ثم ان الصدر الاعظم محمد كوبريلى قاد الجيش بنفسه ولكن الجولة الاولى لم تكن في صالحه حيث غرق بعض سفنه وهرب البعض الآخر وبدأ البنادقة يقذفون العمارة العثمانية بالمدافع ثلاث أيام بلياليها ، وقرر قائد الأسطول البندقي طوماس موشنجو (Thomas Mocenigo) القبض على الدونا العثمانية الراسية بجوار " قوم برون " . (١)

عند هذه النقطة الحاسمة تقدم أحد رجال البحر العثماني ويدعى محمد وصوب مدفعيته نحو السفينة التي يقودها طوماس فأصاب ، بقدرة الله تعالى ، مخزن بارود في السفينة مما أدى الي انفجارها وقتل القائد ونحوألفا من أصحابه ، وتضرر كثير من السفن القريبة منها واضطرت البقية العودة تجر أذيال الهزيمة تاركين ورائهم بعض سفنهم . (٢)

وتابع الوزير حلاوة النصر ، فأجزل العطايا لرجاله المنتصرين ثم أمرهم بمواصلة الكفاح تحت قيادة طوبان محمد باشا ضد البنادقة حتى تمكنوا من تحرير جزيرتي ليمنوس(Limnos)وتينيدوسTenedos) بعد أن حاصروهما نحو ستين يوما .

بعد ذلك عاد الوزير الي اسطانبول وفي عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م بعد أن تم تحرير الجزيرتين عزل طوبان محمد باشا من القيادة وعين محافظا لجزيرة (سافز)ثم

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٨ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، جـ ٧ ص ٩٥ / ٩٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٧٣ .

حصل على " جزاء سنمار " حيث أعدم بسبب اعتقاد السلطان العثماني بأنه قائد جبان. [1]

ومع أن العثمانيين انتصروا على أعدائهم بفضل الله ثم بالاستعداد للمعركة امتثالا لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[2] ، الا أن المؤرخين الغربيين - كعادتهم - أوردوا خبر انتصار العثمانيين وكأنه بسبب إنفجار مخزن للبارود على احدى السفن الايطالية دون ذكر التصويب بالمدفع العثماني . [3]

وبهذا الانتصار أعيدت الثقة في الجيش العثماني والبحرية العثمانية ، وبهذا الانتصار ازدادت مكانة الصدر الأعظم في أعين الناس ، مما زاد في طموحاته وآماله ، وبدأ يطمع في إعادة تلك الأمجاد القديمة التي دقت فيها الدولة العثمانية أبواب : فيينا " سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م .

وعلى الرغم من هذه الطموحات والآمال ، فان الصدر الأعظم لم يتابع حلاوة النصر على خصومة البنادقة وذلك بسبب موقف جورج راكوزى [*] (George Rakozy) أمير ترانسلفانيا الذى أعلن تمرده على السلطان العثمانى وأعلن استقلال بلاده عن التبعية العثمانية . زد على ذلك أن راكوزى أعلن نفسه زعيما بروتستانتيا واتحد مع ملك السويد وأمراء الأفلاق والبغدان

---

(١) المصدر السابق .
انظر أيضا : عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٧٣ .
(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .
(٣) Shaw,S.History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey.p210
Eversly , L . The Turkish Empire . P . 180 .
(*) يلفظ فى بعض المصادر العثمانية " راقوجي " . محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق تاريخ عثمانيدة ، جـ ٧ ، ص ١٠٦ ، وراقوكس ،
صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

بهدف فتح هنغاريا واقتسام بولندا مع روسيا . [1]

ويبدو أن راكوزى رأى أن ضعف الدولة العثمانية وتدهور الأوضاع فيها قبل وزارة محمد كوبريلي ، قد يساعده على الاستقلال بحكم ترانسلفانيا والغاء التبعية العثمانية ، ولكنه في حقيقة الأمر تناسى أنه أعطى لنفسه حجما أكبر منه الأمر الذى سيؤدى به الى الفشل فى النهاية . أضعف الى ذلك أن محاولته هذه جعلت الصدر الأعظم يعطى القضية اهتماما خاصا لا سيما وأن رغبة راكوزى في اقتسام بولندا مع روسيا لا يتفق مع السياسة العثمانية في أوربا ويوثر في نفس الوقت على العلاقات العثمانية / الأوربية بصفة عامة .

فعندما تعرضت بولندا للغزو من كل جانب بادرت الدولة العثمانية بالتدخل حفظا للتوازن ومحاولة للحد من طموحات راكوزى وأطماعه التوسعية .

وكان أولي المواجهات مع راكوزى في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م عندما أرسل الصدر الأعظم قوة كبيرة من التتار قام أفرادها بالدخول الى ترانسلفانيا ومن ثم نهبها [*] مما ادى إلى انسحاب راكوزى من وارسو (Warsaw) الى فستولا(Vistula) حيث هزم فيها هزيمة نكراء .

---

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) المصادر الأوربية أمثال " شو " وغيره تشير إلى أن التتار اكثروا فى النهب والقتل في مدينة ترانسلفانيا مستغلين زهوة الانتصار . ويظهر أن ذلك مجرد تحامل على الدولة العثمانية ، واذا حدث أن تصرف البعض بعمد أو غير ذلك فلا يجب أن نعمم ونثبت حقائق قد تكون مقصودة ، وبينما المصادر العثمانية لم تشر إلى ذلك .

Shaw, S. History Of the Ottoman Empire and Modren Turkey, P. 210.

اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٠ / ١٧١ . محمد فريد بك ،تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١ . عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ،

ثم كانت المواجهة الثانية بقيادة محمد كوبريلي على رأس حملة كبيرة كان من نتائجها استسلام مدينة فهر فار (Fehervar) عاصمة راكوزى ومن ثم هروبه الى النمسا .

بعد أن تحقق النصر على راكوزى ، رأى الصدر الأعظم الالتزام بسياسة هادئة غير منفرة ، فوافق على الفور أن يكون حكم ترانسلفانيا لأمين خزانة (*) راكوزى ، بارسي ايكوس (Barcsay Ekos) واشترط عليه أن يكون تابعا للدولة العثمانية وأن يدفع أربعين ألف دوكا كل عام ، وأن تكون المواقع الأمامية في ترانسلفانيا تحت تصرف الجيش العثماني (١) ويبدو أن الشرط الأخير قصد به أن تستخدم تلك المنطقة مقرا دائما للقوى العثمانية وتوظيفها لصد أى ثورة أو محاولة استقلال في المستقبل .

ورغم هذه السياسة التى تم بها تعيين بارسي ايكوس ، فقد قامت معارضة من قبل انصار راكوزى الذين يبدو انهم لم يتقبلوا طريقة التعيين فما كان منهم إلا اعلان المعارضة خاصة بعد أن حصلوا على تأييد رسمي ومساعدات عسكرية من الهابسبرج واتفقوا على ترشيح أحد قواد راكوزى واسمه كيمنى جانوز (Kemeny Janos) حاكما لهم مستقلا عن الحكم العثمانى . (٢)

(*) يبدو أن الوزير محمد كوبريلي نهج هذه السياسة حتى يتقبل الناس هذا القرار بالرضى طالما أن خليفة راكوزى من أتباعه ولكنه من جهة أخرى حقق الهدف حسب الشروط التي اشترطها عليه أثناء تعيينه .

(١) محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده . جـ ٧ ، ص ١٢١ / ١٢٢ اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .
محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١ .

(٢) Naima , Annales Of The Turkish Empire , Vol . VI, P . 340

ولكن لم يمض وقت طويل ، حتى انطبق على كيمني وأتباعه قول المثل : " يا حافر حفرة السوءا حذر تقع فيها " حيث وقف نبلاء ترانسلفانيا ضده وقتلوه ورشحوا مكانه رجلا من بني جنسهم وهو ميخائيل أبا فى وإلذي حكم ترانسلفانيا مدة عشرين عاما ، التزم خلالها بمبدأ الحياد وأعترف بتبعيته للدولة العثمانية ، وكأن ما حاول القيام به سلفه لم يكن . (١)

وما كاد الوزير محمد كوبريلي ينتهي من أزمة راكوزي حتى يتورط في مشكلة داخلية جديدة وهى ثورة حسن أباظة ، تلك الثورة ،التي عرقلت مساعي الدولة في تثبيت النظام والاستقرار في ترانسلفانيا وساهمت في تأجيل وصول العثمانيين الى جزيرة كريت ومن ثم فتحها .

ظهرت هذه الثورة في سوريا والأناضول من أمهات المناطق الداخلية فى الدولة العثمانية ، وبقيادة رجل كانت له أطماع رئاسية على الرغم من كونه معين على وظيفة سنجق . (٢)

بدأ زعيم هذه المقاومة ، حسن أباظة ، باعلان تمرده ضد السلطان في منتصف عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م . وطالب أول ما طالب بقتل الصدر الأعظم وتعيين طيار زاده أحمد باشا مقابل تبعيته ومبايعته للسلطان العثماني ، وساعده في مواصلة التمرد انضمام القوات التي أرسلها الصدر الأعظم إليه لاخضاعه ، وكذلك تأييد بعض من حاشية السلطان ممن كانوا يكرهون الصدر الأعظم ويرغبون

(١) عبد الرحمن شرف . تاريخ دولت عثمانية ص ٨١ ، على حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ ، كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٧ .

Shaw,S. History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey, P.210 .

(٢) Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342

في تحقيق المال والمناصب ومآرب أخرى ، خاصة من أولئك الباشوات المعزولين بقرار من الصدر الأعظم . (١)

انخدع حسن أباظة بتأييد بعض رجال القصر فتقدم بجيشه حتى وصل إلى مضيق البوسفور ، مما أدى إلى انتشار الرعب والقلق في نفوس الأهالى في العاصمة ، وتوجيه النداء للصدر الأعظم ، للعودة من ترانسلفانيا ومواجهة هذه الحالة الطارئة . (٢)

لم يكن الأمر من السهولة بمكان في نظر الصدر الأعظم ، ذلك أن هذه الحركة المزعجة التي تسببت في توقف الجيش العثماني في الجانب الأوربي ، لابد وأن يعاقب مدبرها أشد العقاب . فما كان من الصدر الأعظم الا أن اتخذ التدابير اللازمة للمواجهة الحاسمة مع الثوار والقضاء عليهم ، ومن ذلك قيامه بصرف رواتب ستة أشهر للجنود مقدما تشجيعا لهم وحثا لهم على الاخلاص والالتزام ، اضافة الى قيامه بارسال الجواسيس حول الأناضول والاتصال ببعض مؤيدى الثورة واغرائهم بالانضمام الى الصدر الأعظم . (٣)

كان لهذه التدابير أثرها الفعال على الثوار ، وكانت بمثابة الانذار بالخطر المرتقب ، مما أدى إلى هروب بعض رجال حسن أباظة ، وأدى أيضا الى فوضى واضطراب في صفوف الثوار ، اضافة الى النقص الواضح في المؤن والمواد الغذائية عندهم .

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصادر

(٣) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٥ / ٩٦ .

هذه الأمور التي ظهرت للعيان وأنذرت الثوار بالخطر جعلت حسن أباظة يشعر بالاحباط وأن الأوضاع في غير صالحه ، ونجاحه ميؤس منه ، فبدأ بالانسحاب من بورصه (Bursa) الى أسكى شهر (Eskisehir) وفي نفس الوقت أرسل عدد من رجاله للانضمام إلى القصر والحصول على الرواتب ومحاولة مساعده الصدر الأعظم ، وأخيرا طلب من الصدر الأعظم منحه هدنة لحل المشاكل فيما بينهما . (١)

ويبدو أن هذه المحاولات اليائسة من ثائر عاجز عن تحقيق أهدافه لم تحقق تقدما يذكر ، لا سيما وأن الصدر الأعظم أذكى من خصمه وأدرك أن هذه المحاولات ما هي الا حيلة مدبرة لتجنب المواجهة الحتمية وما ينجم عنها من نتائج . وكانت الخاتمة أن تدخل شيخ الاسلام بالنصائح المؤثرة لاباظة واتباعه حتى انضم الى الجيش السلطانى عدد منهم ، ورضى أباظة بتسليم نفسه الى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد أن أمنه على نفسه وأتباعه ، الا أنه لم يوف بالعهد بل قتله هو ورفاقه وذلك في أوائل عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م (٢) .

بعد هذه الأعمال والانجازات العظيمة التي حققها في خلال خمسة أعوام ، لم يترك الصدر الأعظم أى فرصة لكل من تسول له نفسه القيام بأى عمل يسيء إلى مصلحة الدولة أو يؤدى إلى عرقلة نشاطها العسكرى ضد أعدائها من الدول

---

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا : Shaw , S . History Of The Ottoman Empire and modern Turkey . P . 211 .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، عثمانيدة ، ج٧ ، ص ١٣٤ / ١٣٥ .

الأوربية . ففي الداخل جواسيسه في كل مكان لمراقبة من يعبث بأمن الدولة ، وفي الخارج ركز اهتمامه على فتح جزيرة كريت وعندما علم بمساعدة الفرنسيين للبنادقة في حماية الجزيرة (كريت) سرا ، اتخذ خطوات فعالة لقطع العلاقة مع فرنسا على الرغم من تلك العلاقات الودية القديمة وعلى الرغم من تلك الامتيازات التى نعمت بها فرنسا فى الدولة العثمانية .

ووما يجدر ذكره أن الصدر الأعظم سبق وأن ضبط رسالة مرسلة الى المسيو "دى لاهي" سلمها أحد الفرنسيين الموظفين في بحرية البنادقة وعندما لم يستطع حل رموزها أرسل باستدعاء السفير الفرنسي الذى بدوره لم يأت معتذرا بمرضه فأناب عنه ولده، وعندما سأله الصدر الأعظم لم يراع فى جوابه آداب المخاطبة ، فأمر بسجنه في الحال ، ثم حضر والده ولم يفسر رموز الرسالة كما ينبغي ، فأرسلت فرنسا المسيو "دى بلندل " سفير فوق العادة لمقابلة السلطان وطلبه عزل الصدر الأعظم ، ولكنه لم يسمح له بمقابلة السلطان وقابله الصدر الأعظم ، ولهذا ساعدت فرنسا جزيرة كريت علنا وأرسلت إليها أربعة آلاف جندى غير المتطوعين وأمدت النمسا بالمال هدفا منها لاشغال الدولة العثمانية وانتقاما لمواقفها نحوها . (١)

ومع كل هذه الاهتمامات لهذا الوزير المخلص الا أن الكبر لم يهمله أكثر مما استحق حيث بلغ الخامسة والثمانين من العمر فخاف على الدولة من الضياع من بعده ، فبدأ أول ما بدأ بأخذ موافقة السلطان وأمه على تعيين ابنه أحمد في مكانه بعد موته،لا سيما وأنه دربه في الأعمال الرسمية ورباه تربية خاصة لمهمام الوظيفة ؛

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

أضافة إلى أنه قبل وفاته جعل الطريق ممهدا لابنه ، فالاسطول تم بناءه من جديد ليواكب الأساطيل المعاصرة له والمضائق أبعد عنها خطر الأعداء والمناوئين والثوار في الداخل والخارج تم الانتصار عليهم وزال خطرهم ، حتى غدت الدولة قوية الجانب متماسكة بعد أن أوشكت على الانهيار .

زد على ذلك أن حرص هذا الوزير واخلاصه لهذه الدولة استمر معه حتى وهو على فراش الموت ، فقبل وفاته في سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م [1] ترك للسلطان الوصايا التالية :

- لا تسمع لنصيحة امرأة .
- لا تسمح بأن يصبح المواطن غنيا .
- يجب أن لا تنقص خزينة الدولة على الدوام .
- استمتع بركوب الخيل واجعل الجيش دائما في حركة مستمرة .

واذا نظرنا بعين الاعتبار لهذه الوصايا ، واذا ما حللنا مقاصد هذا الوزير من هذه الكليمات في كل وصية،فاننا بلا شك سنتعرف على الأسباب التي دفعته لذكرها .

ويبدو أن الصدر الأعظم كان تأثر بظروف عصره منذ كان طباخا في القصر حتي وصل الى وظيفة " الصدر الأعظم " .

فالتوصية الأولى التى يوصى فيها بعدم السماع لنصيحة المرأة توحي بتأثره بالأوضاع العثمانية التى كثر فيها تدخل نساء القصر في شئون الدولة ، لا سيما وأنه نفسه مدين في تعيينه كصدر أعظم للسلطانة الوالدة " طرخانة " ، ثم ان بقاء

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٢ ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣ .

الموظفين الكبار فى مناصبهم كان مرتهن برضاء الحريم السلطاني - زد على ذلك أنه كان يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات نساء القصر حيث قال فى حديث خاص لأحد أصدقائه : " انهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ، ولا يقدرن المسؤولية ، وأن الدولة على وشك الانهيار [٢] .

وعلى الرغم من كون المرأة عاطفية وقد تصدر أحكاما أو تتصرف بما لا يتفق مع الواقع ، الا هذه الوصية تحمل معنى العمومية ، فالنساء لسن على مستوى واحد ، ومثلهن الرجال ، واذا كانت ظروف العصر الذى عاشه الصدر الأعظم أعطاه نوع من الانطباع السيء عن المرأة ، فكم من أمثلة في التاريخ لنساء بلغن القمة في العقل والحكمة والالتزام .

أما التوصية الثانية التي يوصى فيها بأ لا يسمح للمواطن بأن يصبح غنيا ، فهى توصية عقيمة ولا تتفق مع المنطق وليس لها ما يبررها ، وتتعارض مع الشريعة الاسلامية السمحاء ، وللأسف الشديد أن بعض ساسة الدول في القرون الحديثة نهجوا هذا المنهج وكأنهم يطبقون بذلك هذه التوصية على شعوبهم .

والتوصية الثالثة التي تنص على ضرورة بقاء خزينة الدولة غير منقوصة على الدوام ، فهى توصية ايجابية ولها ما يبررها ، خاصة وأن النقص فى خزينة الدولة يشل من قوتها واستمرار ثباتها وتطورها . وقد عاصر الوزير محمد كوبريلي ما عانته الدولة من نقص في مواردها المالية زمن السلطان ابراهيم الأول " ١٠٤٩ هـ - ١٠٥٨ هـ " عندما أسرف هو ورجال البلاط فى موارد البلاد المالية وزيدت فئات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولتِ عثمانية ، ص ٨٣ / ٨٤ .
Eversly , Lord . The Turkish Empire . P . 181 .
(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج١ ، ص ٦٠٨ / ٦٣٣ .

الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات القصر مما أدى الى سخط الرعية وقتل السلطان سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م .

ولذلك لا نستغرب توصيته بهذه الوصية ، وكأنه يريد أن يؤكد على ضرورة الترشيد وعدم الانفاق فى غير اللازم ، وهو ما التزم به أثناء عمله في منصب الصدارة .

أما التوصية الرابعة الخاصة بركوب الخيل وحركة الجيش ، فقد عاش الوزير تجربتها بنفسه عندما كان السلطان محمد الرابع متعلقا بركوب الخيل والقنص تاركا شئون الدولة في أيدى الغير ، ويبدو أن الوزير أراد أن يهتم السلطان بأمور دولته بنفسه ولا يجعل هذه الهواية تصرفه عن ممارسة واجباته الأساسية ، فقد يعتمد على من يسيء استخدام السلطة في حالة غيابه عنها ، وكان مقصد الوزير فى ذلك جليل وتقديره للأمر عظيم .

وهكذا أيها القارىء الكريم ، أضاف هذا الوزير - محمد كوبريلي - الى انجازاته العملية توصياته الأدبية التي توحي بمدى حرصه على أمن واستقرار الدولة العثمانية حتى بعد وفاته . ولذلك فان الخمس السنوات التى حكم فيها وما شهدته من انجازات عظيمة تعتبر بحق فترة تاريخية مضيئة فى تاريخ الدولة العثمانية . فخلالها قبض على زمام الأمور وقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى أعاد للدولة سالف مجدها ، وخلالها محا آثار الفوضى وأعاد الأمن والنظام وفك الحصار على المضائق واسترجع الجزر من الأعداء حتى أصبحت الدولة في مركز مميز أمام الدول المعاصرة لها بعد أن كانت على وشك الانهيار .

وأخيرا أرجو من القارىء الكريم المعذرة في الخطأ والتقصير فجل من لا يخطىء والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٩ .

المـــصادوالمراجـــــــع

- القرآن الكريم .
- الحديث الشريف

الكتب العربية والمعربة :

- اتحاف الملوك والالباب (لا يعرف مؤلفه).

ترجمه من اللغة الفرنسية خليفة محمود .

- بروكلمان ، كارل .

تاريخ الشعوب الاسلامية . نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى، ط ٦ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٧٤ م .

- بكر ، عبد الوهاب ،

الدلة العثمانية ومصر فى منتصف القرن الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨٢ م .

-جلال ، يحيى ،

تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، الاسكندرية : دار المعارف ، ١٩٨١ م .

- سرهنك ، اسماعيل ،

تاريخ الدولة العثمانية . بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨ ه / ١٩٨٨ م .

- شلبى ، احمد ،

التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٧٧ م .

- الشناوى ، عبد العزيز محمد ،
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ثلاث مجلدات ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعه جامعة القاهرة : ١٩٨٠ م .
- عبد الرحمن ، شرف ،
تاريخ دولت عثمانية، اسطانبول : مطبعة سي-باب عالي جاده سنده ١٣٠٩هـ .
- على حسون ،
الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الاسلامي .
- كامل ، صدر أسبق ،
تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية . جـ ١، مطبعة \أحمد حسان ، ١٣٢٧ هـ .
- محمد فريد بك المحامى ،
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- محمد مراد ،
تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ط ١ ، مطبعة آمدى ، ١٣٢٩ هـ .

- Creasy , Edward . S .

History Of the Ottoman Turks , Beriut , 1961 .

- Eversly , G . J . S . ,

The Turkish Empire : Its Growth and Decay ,

London , Fisher Unwin Ltd . , 1917 .

- Naima

Annals Of The Turkish Empire , New York: Arno Press ,

1973 .

- Norman , I .

Ottoman Empire and Islamic Tradition , New York ,

Alfred A . Knopf , 1972

- Kinross , Lord .

The Ottoman centuries : The Rise and Fall Of The Turkish

Empire , London : Jonathan Cape .

- Shaw , S .

History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey ,

London : Cambridge University Press .